

## كتاب حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

بقلم الأستاذ م. ف. ا.

حل العام الهجري الجديد ، ورجو أن يكون حلوله مباركا على العالم أجمع ، وأن يشمل العالم من نعمة دين الهجرة في العام الجديد أكثر مما ناله في العالم المنصرم . إذا تطالب الانسان مثلاً أعلى في الحياة تطلع إلى دين محمد ، وإذا تطالب الطمأنينة لجأ إلى كنف دين محمد ، وإذا اشتدت به الحياة المادية جنح إلى روحانية دين محمد ، فأى شيء أشهى إلى النفس من أن تقرأ شيئاً عن محمد في مستهل العام الهجري الجديد ؟

هكذا قد قرأت كتاب الأستاذ الفاضل الدكتور محمد حسين هيكل « حياة محمد » عند ميلاد هلال العام الجديد ، فكانت بشرى ، وكانت مسرة ، وكانت عظة . والدكتور هيكل شاعر النفس ، وإن لم يقل الشعر . لم يكن لي عهد بقراءة شعر له ، حتى أعرف فيه هذه الصفة . غير أني قرأت له الكتاب ، فاذا به في بعض نواحيه شعر ملاً النفس وبشر أشجانها . ولئن كانت كتب السيرة كثيرة ، فإن كتاب الدكتور هيكل له ميزة على سائر السير بأنه قد انمكست فيه مشاعر الكاتب وخلجات نفس الانسان ، فاذا قرأه القارئ وجد به بصور صورة حية تامة ناطقة في ثنايا ذكر الحوادث ووصف الحالات

يبليغ الكاتب زيارة الرسول للمدينة مع أمه آمنة . ثم عودتها منها وموتها في الطريق ، فلم يشأ أن يذكر تلك الحادثة وحدها ، بل صور لها صورة ظاهرة الألوان ، حية تفيض عطفاً وقوة فيقول : « فلما كانوا بالمدينة أرت النلام البيت الذي مات أبوه فيه ، والمكان الذي دفن به ، فكان ذلك أول معنى لليتم انطبع في نفس الصبي ، ولعل أمه حدثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذي غادرها بمد مقامه معها أياماً ممدودة ليحييه بين أخواله أجله .

ولما تم مكثهم بيثرب شهراً اعترمت آمنة العودة ، فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملهما إلى مكة ، فلما كانوا في منتصف الطريق مرضت آمنة بالأبواء وماتت ودفنت بها ، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحياً وحيداً بشمر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدة والمآ . لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم

لفقد أبيه وهو جنين ما يزال ، وها هو ذا قد رأى بيمينه أمه تذهب كما ذهب أبوه ، وتدع جسمه الصغير يحمل هم اليتيم كاملاً . ولو شئنا أن نضاعف ضرب الأمثلة لضائق مجال هذه الكلمة عن إيرادها ، فالحق أن الكاتب قد أبرز في الكتاب عاطفة تكسو ما بين سطور السنين ، ونحبي جسد الحوادث إحياء

ولقد وفق الكاتب في معالجة السيرة ومراعاة التناسب بين أجزائها ، فكان يطيل الوقفة عندما يجمل به الوقوف عنده ، وكان يمر سريعاً عندما يجمل الاسراع في ذكر الحادثة . ونذكر على سبيل التمثيل وقتين له أحسن في التريث عندهما ، حتى يجلو عنهما ما قد أدخل أهل الحقد عليهما من اللبس : أعني مسألة اسماعيل ونسبة العرب إليه ، ومسألة الفرائيق الملا . فانه في الوقفة الأولى كشف عن تلك البدعة الضالة المضلة التي يقصد بها إلى التشكيك في أمر يكاد يكون من العقائد ، فأبان عن الوهن في حجة المشككين بإبانة لا تدع مجالاً للريب ؛ وفي الوقفة الثانية عرض لحجج الخائفين فانتظمها جيماً في طعنة قاضية . ولست أستطيع أن أذكر شيئاً من تلك الحجج ، فإن المجال هنا لا يتسع لها ولا يصلح إيراد قطعة من حجة لا تكون مجردة على أن وقفانه التي من هذا القبيل كثيرة ، بل هي تتخلل

الكتاب في كل الفصول وفي كل وجوه البحث غير أننا مع إعجابنا بالكتاب وأسلوبه ، ونقده وطريقته ، لا بسمنا إلا أن ننكر منه أشياء إلا تكن في صميمه فهي في حواشيه ، نعتي بذلك أولاً عنايته بقول من قال السوء من أعداء الاسلام ، فقد أورد من أقوال بعض الأفاكين من أهل الضلال والتضليل ما يجرح الأذن سماعه ، على حين لم يكن ذكره في صميم الموضوع ولا في عرض الحجة . فأى شيء يجديه علينا ذكر سباب شنيع للرسول الكريم ورد على السنة بعض أهل الحقد والريغ ؟ ولقد قيل شيء كثير من أمثال ذلك في أيام الجاهلية ، فتعفف أهل السير عن إيرادها ، وخيراً ما فعلوا ، فإن المؤمن إنما يمرض لحجة خصمه ، لا لسبابه ولا لفحشه ، وما كان أغنانا أن نسمع الناس بعض ما نر من قلوب هؤلاء الأتجاس وأمر آخر نذكره عرضاً وننبه اليه الأستاذ الكبير ، وهو بعض ما سها فيه عند ذكر السنين ، ولعل ذلك كان خطأ في الطبع أو المراجعة ، وذلك مثل قوله في حوادث اليمن ؛ وما كان فيها من الحرب في أيام جوستنيان أنها وقعت في القرن الخامس

ولقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في وصف حاله العامة :  
 « لست من ددر ولا دد منى » أى أنه كان لا يميل بطبعه إلى اللهو  
 فلقد تتره مقام الرسول عن أن يتناول له نفسه الهبوط إلى مكة ليصيب  
 من لهوها ويمبث فيها عبث الشباب في جنح الليل ؛ فلن كان  
 بمكة من فجور ما أبعد الرسول في صباه عن أن يتحدث نفسه بشئ  
 منه ، وما أبعد الفرق بين عبث الشباب ولهوه وبين السمر البريء  
 الذى يسمر به الفتيان . ولقد وصف المؤلف في عرض حديثه  
 حياة الجاهلية وعلاقة الرجل بالمرأة فيها ، وزى أنه في حكمه على  
 تلك الحياة كان دائماً يميل إلى أن يتخذ من الجزئيات أحكاماً كلية ،  
 ولم يكن في هذا مقتصرأ على تميم نوع واحد من الأحكام ،  
 بل كان أحياناً يعم فضيلة لم تكن عامة ، وأحياناً يعم رذيلة لم  
 تكن عامة . فقال مثلاً في موضع : إن العرب كانوا قبل الاسلام  
 يجتمع فيهم « خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحمية الجار  
 والعمو عند القدرة ، وما إلى ذلك من خلال تقوى في النفس كلما  
 قاربت حياة البادية الخ »

وهذه خلال وإن كانت مثلاً علياً عند العرب لا يمكن أن  
 يقال إنها كانت خلالاً عامة للعرب . وقال في موضع آخر : « إن  
 صلات الرجل والمرأة في هذه الجماعة العربية لم تكن تعدو صلات  
 الذكورة والأنوثة » وقال في موضع ثالث « وبلغ من أمر هذير  
 الصلة — أى صلة الاباحة بين المرأة بالرجل — أن لم تأب هند  
 زوج أبي سفيان أن تقول في أشد موافق الجسد والشدة وهى  
 تحت قريشاً حين الحرب يوم أحد :

« إن تقبلوا نمانق ونفرش الثمارق الخ »

وقال بعد ذلك : « ثم إن المرأة كانت إذا ولدت ، ولم يعرف  
 مولودها أب ، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال الخ »  
 وهذه القطع كلها فيها تميم لا تبرهه الوقائع ، يدرك ذلك كل  
 من ألم بتاريخ العرب ، ولا يتسع المجال هنا لنقص مثل هذه العبارات  
 العامة ، وإنا نجتزئ بذكر كلمة صغيرة قالتها هند عند ما جاءت  
 لتسلم عند الفتح إذ قال لها النبي يعلمها قواعد الدين : « وألا  
 ترى » فقالت « وهل ترى الحرة »

على أن المؤلف وهو يصف أحوال الجاهلية قد نسي فزاد  
 التعميم حتى جعله يتناول عهد عمر بن أبى ربيعة ، واستدل على  
 ذلك بما يمكن أن تقرأ في شعره من دلائل علاقات المرأة بالرجل  
 فالحق أننا إذا خرجنا من الوقائع ومنطقها . ومن ذكر

الميلادى والمقصود هو القرن السادس ، لأن حكم جستنجان يقع  
 فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ بعد الميلاد ؛ وكذلك قوله بعد ذلك إن  
 هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى ،  
 كما ننبهه الى قوله عند ذكر الأوس والخزرج إن الخزرج كانت  
 على وشك أن تختار أحد زعمائها ملكاً وهو (عبد الله بن محمد) ،  
 يقصد عبد الله بن أبى

ومن هذا القبيل قوله في فارس قبيل الاسلام « على أن  
 فارس رغم انصراف شعرويه الى مسراته كانت مازال في قمة  
 مجدها » . والحق لقد كانت إنما تتعلل بماضى مجدها ، على حين  
 كانت نهب الفتن ومعتك الأطماع وميدان الخطط الحربية التى  
 تدبرها جارتها الدولة الرومانية

ولا يفوتنا أن ننبه الى شئ من التجوز في سياق القول قد  
 يؤدي الى شئ من سوء الفهم ، معنى ما جاء في وصف شباب  
 الرسول وما مالت اليه نفسه من لهو الشباب . فقد أورد المؤلف  
 الخبر على أن الرسول إذ كان صبياً حدثته نفسه أن يلهو كما يلهو  
 الشباب ، فأفضى الى زميله ذات مساء أنه يود أن يهبط الى مكة  
 يلهو بها ويعبث عبث الشباب في جنح الليل ، وطلب لذلك اليه  
 أن يقوم على حراسة أغنامه الى آخر ما قال :

وذكر القصة على هذا النحو مخالف لما هو وارد في السير ،  
 لأنه قد يلقى في ذهن القارئ الخالى الذهن أن الرسول المعصوم  
 قد كان في نفسه في شبابه ذلك الميل المضطرم الى العبث والهو .  
 فليس في الأمر أكثر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام طلب  
 الى زميل له أن يحرس غنمه حتى ينزل الى مكة ليسمر فيها كما  
 يسمر الفتيان ، فلما بلغ أعلى مكة سمع صوت غناء ومزامير ،  
 فسأل عنها فقيل له عرس فلان وفلانة ، فخرج على العرس يلتمس  
 السمر ، ولكنه لم ينشط إلى ذلك الطرب ، بل ضرب الله على  
 أذنه فنام ، وبذلك حفظه الله من أن يرد أقل موارد الهو ، إذ لقد  
 كان قلبه منصرفاً منذ نشأ الى الجليل وإلى الجد . ولا يخفى ما في  
 إيراد القصة على الصورة الثانية من فرق عما في التصوير السالف .  
 فالرسول عليه الصلاة والسلام منذ طفولته عظيم النفس لا يميل  
 إلا إلى الوقار والجد . ولقد كان جده عبد المطلب يراه وهو صبي  
 يجلس على البساط الذى يفرش له بجوار السكبية ، لا يجرو أحد  
 على أن يقترب من كبير قريش إلا ذلك الصبي الصغير ، فكان  
 عبد المطلب يقول عنه في كثير من الاحجاب : « إنه بأنس ملكاً »

في الكتاب من إيجاز . وفي ذلك معاونة المؤلف في عمله الشاق .  
فانا إذا بحثنا فقلنا للمؤلف أصبت أو أخطأت وأدلينا بالحجة  
فقد أعناه على بلوغ غايته ، وسررناه بالاهتمام بما أهتم به . علينا  
أن نتلقى هذه الكتب بالبحث المتصل والنقد المخلص لله والحق ،  
ونجعلها قطباً لطائفة من المناقشات حتى نثير ، على قدر الطاقة ،  
ما أظلم من جوانب الحضارة الاسلامية

وقد همت منذ صدر الجزء الأول من ضحى الاسلام  
بالكتابة عنه ثم حالت حوائل حتى ظهر الجزء الثاني . ثم لم أفرغ  
للكتابة عنه في هذا المدد الممتاز من الرسالة ، فبادرت بدعوة الناس  
إلى الكتابة واعدت أن أكتب في الأعداد الآتية ما ينيسر لي في  
ضحى الاسلام

وقد قلت في كلتي القصيرة التي قلتها في حفلة تكريم أستاذنا  
المسلامة أتي وبمض أحبابي عزيمنا أن نقرأ الكتاب ونكتب  
عنه في دار الأستاذ المؤلف ثم عرفت آسفاً أن صفحات الرسالة  
أقرب اليانا من دار الأستاذ وأوسع . فموعدنا الأعداد الآتية

## أحاديث جدتي

تأليف الأنسة سهير القلماوي

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

تناولت هذا الكتاب الطريف ، فإ وضعت حتى أتممت  
قراءته ، ولكم تمنيت لو طالت تلك الأحاديث الرقيقة وما زخرت  
به من الصور الطلية ، فشغلت من الصحائف أكثر مما ضمه  
بين دفتيه ذلك الكتاب ، فإن إيجازي بها وشدة تأثري بأخيبتها  
الهادئة الساحرة قد جعلاني أشمر عند انتهائها بما كنت أشمر به  
ليالي الطفولة العذبة حين كانت تنتهي الحكاية الشيقة بنقطة وأنا  
أكثر ما أكون استمتاعاً بها

على أن الشيء الجميل إذا علق بالنفس فأنما هو مبعث سرور  
دائم ، ولقد يزايد ما يبعثه في النفس من الضبطة بعد أوانه . ذلك  
ما أحسه بعد قراءة هاتيك الأحاديث الجميلة ، وهي سلسلة  
أحاديث دارت بين الكاتبة وجدتها تصف الحياة المنزلية والحياة  
الاجتماعية للجيل الذي سبق جيلنا ؛ أنارتها الذكريات من نفس  
الجددة فتحدثت عن الحياة المنزلية ، ثم أعاد الى ذهنها استشهاد

السيرة ومواقفها لم نجد في وصف الحالات الاجتماعية ما نستطيع  
الاعجاب به . فان الدكتور قد درس السيرة ، وأسبل النطق على  
مواقفها . ولكن الذي يتناول السيرة لا يكفيه مثل ذلك الدرس  
بل يجب أن يكون كذلك قد سبق له حظ عظيم من العلم بتاريخ  
المرب وأيامها وأحوالها كما يكون في استطاعته أن يحسن الحكم على  
عادتها ، وأن يحسن تأويل أخبارها . ولعله قد أدرك أن قوله فيه  
هذه البالغة فاتهم القاري ، وقال « ربما بدا هذا التصوير للقاري »  
المعجب بالمرب وحضارتهم وللمعجب حتى بمرج الجاهلية ،  
مشروباً بشئ من القلرو ، وللقاري العذر في ذلك » ولقد صدق  
المؤلف في هذا الاستدراك

على أننا وإن أخذنا هذه المآخذ على الكتاب نرى أنه فتح  
جديد في التأليف الحديث ، ونشكر للدكتور الفاضل والمؤلف  
النابه تلك الهدية الثمينة التي أهداها إلى قراء العربية

## ضحى الاسلام

تأليف الأستاذ أحمد أمين

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

أخرج أستاذنا العلامة أحمد الأمين كتابه فجر الاسلام ،  
وهو أحد أجزاء ثلاثة بهذا الاسم ، تقسمت بينها تاريخ المسلمين  
الفكري والأدبي والسياسي في الصدر الأول  
ثم تقدم أستاذنا ليلغ بالبحث نهاية العصر العباسي الأول ،  
فأخرج الجزء الأول من كتابه ضحى الاسلام عام أول ، وامتد به  
البحث فأخرج الجزء الثاني هذا العام ، ومضى ليخرج الجزء  
الثالث والجزء الرابع إن شاء الله

وقد تلقى الناس كتب الأستاذ بالقبول ، وأوفوه حقه من  
الثناء ، ونالت الكتب من الذبوع والانتشار ما هي جديرة به ،  
ولكن هذا الثناء لا يكفيننا ولا يجدي علينا كثيراً . فهذه الكتب  
تتناول تاريخ الحضارة الاسلامية في أعظم نواحيها أثناء القرنين  
الأولين ، وفيهما كان نشوء الحضارة الاسلامية ونماؤها ، واختلاف  
الآراء وتنازعها . ولم تدرس هذه الموضوعات على هذا النسق من  
قبل ، فواجب على كتاب المسلمين ، وكل من يعنى بتاريخ  
الحضارة الاسلامية أن يجعلوا هذه الكتب مدار بحث ونقد ،  
ويشتقوا منها إجماعاً تبلغ بهم الغاية أو تقاربها ، وتكمل ما يكون